مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 11 العدد 1ب، 2014، ص ص 367- 396

مذهب الجاحظ في الارتجال في كتابه "البيان والتبيين"

عبد الكريم الحياري *

ملخص

الارتجال في "البيان والتبيين"(*) موضوع لم ينل ما يستحقه من عناية عند دارسي الجاحظ أو الذين تناولوا الارتجال عند العرب بعامة. وفي الكتاب آراء وأقوال في هذا الموضوع تبدو متنافرة متعارضة، وهذا البحث يتتبعها ويحاول إعادة تركيبها على نحو يوضّح المعالم الرئيسة لمذهب الجاحظ في الارتجال، ويرمي إلى استجلاء حقيقة هذا المذهب وبيان حظّه من الاتساق والانسجام بين جوانبه. وقد انتهى البحث، بعد دراسة تلك الآراء والأقوال ضمن السياقات التي جاءت في أثنائها واعتبار المنطلقات التي صدر عنها الجاحظ في كل منها – إلى أن ما بينها من تعارض لا يعدو أن يكون أمراً ظاهرياً، وإلى أن للجاحظ مذهباً في الارتجال على قدر معقول من التماسك والاتساق: بلاغة الكلام شرط لا يمكن التسامح فيه، لا فرق في ذلك بين أن يكون مرتجلاً أو غير مرتجل، فإذا استوفى هذا الشرط وكان مع ذلك مرتجلاً، أصبح شاهداً على بلاغة المتكلم الفائقة التي لا يكاد إعجاب الجاحظ بها يقف عند حدّ. على أن الجمع بين الأمرين: الارتجال وبلاغة الكلام ليس بمتيسّر في كل حال ولا لكل قائل، وهنا يستحيل الإعجاب بالارتجال نهياً عنه، لا لأنه غير محمود، ولكن إشفاقاً على بلاغة الكلام من أن يجور عليها التسرّع في القول أو يودي بها.

- أ -

الارتجال في عرف البلاغيين والنقاد[1] يستعمل للدلالة على صدور الكلام عن قائله دون إعداد سابق، فهو كلام ينطلق به لسانه دون أن يكون قد أنفق وقتاً وجهداً في التفكير فيه أو في صياغته، ولذلك قيل "إنه مأخوذ من السهولة والانصباب"[2]، فهو يدل على سهولة الكلام على المتكلم وتدفّقه فيه. وكثيراً ما يقترن هذا المصطلح بمصطلح آخر هو "البديهة" حتى لتجدهما يستعملان معاً في سياق واحد فيقال: "البديهة والارتجال"، وكلاهما يوصف به ما جاء من الكلام عفو الخاطر لم يكن صاحبه قد أعدّه أو تهيّأ له، ويقابلهما مصطلح "الرويّة" أو "التروّي" الذي يستعمل للدلالة على كون الكلام قد تدبّره صاحبه ونظر فيه على نحوٍ ما قبل أن ينطق به.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2014.

* قسم اللغة العربية، الجامعة الأ{دنية، عمان، الأردن.

(*) الطبعة المعتمدة في هذا البحث هي طبعة بيروت، دار الفكر، د.ت. بتحقيق عبد السلام هرون، والصفحات الواردة في الحواشي غير مسبوقة بذكر مصدرها تشير إلى مواضع من هذا الكتاب على وجه التحديد.

على أن بعضهم كابن رشيق ومن تابعه[3] يفرّق بين البديهة والارتجال في أن الارتجال "أسرع من البديهة"[4]، وذلك "لأن البديهة فيها الفكرة والتأيّد، والارتجال ما كان انهماراً وتدفقاً لا يتوقف فيه قائله"[5]، ففي البديهة على رأي هؤلاء "يفكر الشاعر يسيراً ويكتب سريعاً إن حضرت آلة، إلا أنه غير بطيء ولا متراخٍ، فإن أطال حتى يفرط أو قام من مجلسه لم يعدّ بديهاً"[6]، أي أن الارتجال إنما يتفوّق على البديهة في آنيّته وفوريّته، وأما ما سوى ذلك فإنهما سيّان في الدلالة على طلاقة اللسان بالكلام الذي لم يسبق للمتكلم أن أعدّه أو احتشد له، إلا أن البلاغيين والنقاد- ومنهم ابن رشيق نفسه الذي يأخذ على غيره من المتحدثين في هذا الموضوع أنهم لا يميزون بين المصطلحين ويرون فيهما شيئاً واحداً[7]- ظلوا يستعملونهما معاً وكأنهما لفظان مترادفان.[8]

وقد نالت القدرة على الارتجال إعجاب الناس[9]، فهي لا تتاح إلا للقلة من الناس، وثمة فرق كبير بين من لديه متسع من الوقت للنظر في كلامه ومعاودة النظر فيه بالحذف والزيادة والتنقيح والتحرير ومن يقول كلامه عفو الخاطر وعلى الفجاءة. وهكذا أصبح الارتجال مما يُستند إليه عند تفضيل قائل على قائل[10]، ومن هنا صار في جملة الوصايا البلاغية أن يُعدّ الأديب كلاماً يقوله في أحداث متوقعة أو مرتقبة، حتى إذا وقع الحادث المنتظر بدا كلامه كأنما قيل بديهة "وأرى الحاضرين أنه ارتجله، ففاز ببعد الذكر"[11]. على أن البلاغيين يحذّرون من "خيانة البديهة في أوقات الارتجال"[12]، وينبّهون على فضيلة التروي في إنضاج الفكرة والتّوقي من جنايات اللسان وزلاته[13]، وعلى أن مقامات بعينها تستدعي التأمل ومراجعة النفس[14]. والأديب المبتدئ بخاصة يُنصح بالإعداد والتروي، حتى ذهب بعضهم إلى أن الارتجال لا يتأتّى للمرء إلا في أواخر عمره بعد أن يكون قد تمرّس بصناعة الكلام واتّسعت تجربته[15].

هذه مقدمة أريدَ بها أن تكون توطئة للحديث عن مسألة الارتجال في "البيان والتبيين"، نتوسّل بها إلى أن نضع ما سيأتي من حديثنا في سياقه العام. ومع كثرة ما كُتب عن الجاحظ، فإن هذه مسألة لم تنل من دارسي الجاحظ اهتماماً ذا بال، ولم تحظَ أيضاً بما هي جديرة بهِ من عناية في مؤلفاتٍ عرضت لموضوع الارتجال في النقد العربي بعامّة، وهي مؤلفات لم تُتح لها سعة اهتماماتها الوقوف وقفة متأنّية عند هذا الموضوع الذي ما زال- في حدود ما أعلم- في حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحقيق. ويزيد من أهمية البحث فيه أن في "البيان والتبيين" آراء وأقوالاً تبدو مفتقرة إلى الانسجام فيما بينها، بل ربما أفضى التعارض بينها إلى أن تكون أدخل في باب التناقض الصريح، وقد رُمي الجاحظ به فعلاً[16].

من هنا فإن الغرض الذي يرمي إليه هذا البحث هو دراسة ما تناثر في "البيان والتبيين" من أفكار وملاحظات مما يتصل بمسألة "البديهة والارتجال" لتحرير مذهب الجاحظ في هذه المسألة، والوقوف على حقيقته، وبيان مدى حظه من الانسجام والاتساق بين جوانبه أو التنافر بين تلك الجوانب. ونحن نصدر في ذلك عن مقدمة أو فرضية هي أنه إذا وُجدت أسس مقبولة معقولة يمكن

البناء عليها في دفع ما قد يبدو من تعارض بين آراء الجاحظ في الارتجال، فذلك أولى من الإسراع إلى رميه بالتناقض والحكم على كلامه بعدم الاتساق، وقد آثرت أن أعرض أولاً ما ورد في "البيان والتبيين" من مادة متصلة بموضوع هذا البحث كما تبدو عليه في ظاهرها، وتركت هذه المادة تتحدث عن نفسها، كما تركت القراءة الظاهرية أو الأولية لها تفصح عن مدى ما تتضمنه من اضطراب وتنافر بين جوانبها. ثم عدت إلى تناول تلك المادة في قراءةٍ ثانية تسعى إلى تفسير آراء الجاحظ أو تأويلها بالنظر إلى السياقات التي وردت فيها، والمنطلقات التي- فيما أُقدّر- صدر عنها، والدوافع التي ساقته إليها، لعلّ ذلك كله أن ينتهي بنا إلى رؤيتها رؤية أخرى تنفي عنها ما بدا في القراءة الأولى من اضطراب أو تناقض. وهكذا فإن الجوانب التي سيتناولها هذا البحث يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- إعجاب الجاحظ بالارتجال والإعلاء من شأنه.
- نهيه عن الارتجال وحثّه على التروي.
- بيان ما يصوّره كلامه من تردّده وحيرته إذا حُمل على ظاهره.
- محاولة التوفيق بين مدحه الارتجال ونهيه عنه.

كتاب "البيان والتبيين" هو قاعدة هذا البحث وعليه مداره (وحيثما ذُكر الجاحظ ههنا فإنما يُقصد بذلك كتابه هذا ما لم يدل السياق بوضوحٍ على غير ذلك)، على أن البحث لا يُغفل من كتابات الجاحظ الأخرى أو مؤلفات غيره ممن ألمّوا بالموضوع الذي نحن فيه– لا يُغفل منها ما يمكن الانتفاع به بوجه من الوجوه في إضاءة جوانب هذا الموضوع. ولعلّ هذا البحث أن يحقّق ما يرمي إليه من استجلاء مذهب الجاحظ في الارتجال فيكون فيه إضافةٌ ما إلى ما كُتب عن بلاغة الجاحظ ونقده، ويتضمن في الوقت نفسه ما قد يكون ذا فائدة في دراسة مسألة الارتجال في التراث النقدي والبلاغي بوجه عام.

- ب-

لا يتبيّن من كلام الجاحظ أنه يفرّق بين البديهة والارتجال[17]، بل نجده يستخدمهما معاً وكأنهما مترادفان. والظاهر أن التفريق بين المصطلحين لم يكن معروفاً في وقته، وربما كان ابن رشيق – فيما اقتبسناه منه سابقاً – هو أول من فرّق بينهما، وهذا على أية حال ما تشير إليه المصادر المتوافرة لدينا. ولكن الذين يفرقون بينهما ظلوا كما تقدم القول في ذلك يستعملونهما معاً على نحو ما نجده عند الجاحظ. كما أننا نجده يضيف إليهما مصطلحاً ثالثاً يدور على لسانه[18] ويتردّد في غير موضع من "البيان والتبيين"، وهو مصطلح "الاقتضاب". وليس في كلامه ما يدل على أن هذا المصطلح يتميز عن البديهة والارتجال، وإنما يُفهم من عبارته أن هذه مصطلحات ثلاثة تشير إلى ما يقوله المرء دون التهيّؤ له وإعمال الفكر فيه[19]. وفي مقابلة ذلك

يستخدم الجاحظ ألفاظاً مثل التنقيح والتحبير والتهذيب والتدبّر والفكرة والتفكّر والتثبّت للدلالة على ما لم يأتِ من الكلام عفو الخاطر، وهي ألفاظ لا يبدو أنها اتخذت سمة اصطلاحية عنده، يدلّك على ذلك كثرتها أولاً وعدم استقراره على واحد منها أو على بعضها ثانياً. على أن ثمة مصطلحاً يرد عنده للدلالة على هذا التنقيح والتهذيب وهو "الحوليّ المحكّك"[20]، ولكنه مصطلح خاص وليس عاماً، إذ يطلق على ما اشتهر به زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأضرابهما في كون الشاعر منهم يعيد النظر في قصيدته على مدى حول كامل، وإن كان استعمال لفظ "المحكّك" غير مقرون بكلمة "الحولي" يفقده هذه الخصوصية ويجعله عاماً في الكلام شعره ونثره[21].

وقد حظي الارتجال وما يتصل به أو يرادفه من بديهة واقتضاب بإعجاب الجاحظ، فقد فتن به كما فتن به غيره، ومن الصعب أن نجد بلاغياً أو ناقداً آخر يتقدّم الجاحظ أو يفوقه في مبلغ احتفاله بالارتجال، بل لعلنا لا نجد من يبلغ مبلغه أو حتى يدانيه في هذا الشأن، فقد وصل به الأمر إلى أن جعله أمارة على البلاغة أو دليلاً عليها، أو كأنه يسوّي بينه وبين البلاغة نفسها، فإذا كان العرب- في رأيه ورأي غيره- قد تميّزوا عن سائرالأمم بالبلاغة واختصوا بها وتفوّقوا فيها، فإن أظهر خصائص هذه البلاغة عندهم إنما هي في البديهة والارتجال، فعنده "أن العرب أنطق... [و] أن البديهة مقصورة [في الأصل مقصور] عليها، وأن الارتجال والاقتضاب خاص فيها"[22]، وهذه فكرة يعود إليها في موضع آخر من "البيان والتبيين" بتفصيل أكثر حيث يقول في فقرة مشهورة تعاقبت الدراسات المعاصرة على اقتباسها أو بعضها: "كلّ كلامٍ للفُرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي، وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكّر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علمَ الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم. وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف [العربي] وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيّده على نفسه، ولا يدرّسه أحداً من ولده. وكانوا أمّيّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفّظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفّظ ولا طلب."[23]

وإنما اقتبسنا هذه القطعة على طولها لندع عبارات الجاحظ نفسها تفصح عن مدى ما ناله الارتجال من حظوة لديه، وعن الدرجة العليّة التي أحلّه فيها، وأنه جعله صنواً للبلاغة ويشبه أن يكون مرادفاً لها. وقد يُظن أن كلام الجاحظ ههنا يعبّر عن موقف عاطفي آنيّ ساقه إليه الحرص على الإعلاء من شأن العرب والردّ على مقالات الشعوبية، ولا سيما أن كلامه ورد في هذا السياق نفسه. ويدفع هذا الظن أن عبارات الإعجاب والثناء تتردد في "البيان والتبيين" في مواضع أخرى لا صلة لها بموضوع الشعوبية. وليس من غرضنا ههنا أن نناقش القول في أن الجاحظ قد بالغ في وصف الموهبة العربية في معرض ردّه على الشعوبية وأنه لم يكن جاداً حين ذهب هذا المذهب[24]، وإن كنا نرى أن تكراره الحديث عن هذه الموهبة والتنويه بها في مواضع أخرى من "البيان والتبيين" وغيره من مؤلفاته[25] في مقامات وسياقات متنوعة لا علاقة لها بالشعوبية والرد عليها – يدل على أن الجاحظ يصدر في ذلك عن فكرة راسخة لديه يؤمن بها ويعتقدها. ما يعنينا هنا هو هذا الربط الوثيق بين البلاغة والارتجال حتى كأن أحدهما هو الآخر، فكلام الجاحظ واضح في أن الارتجال هو البلاغة في أرقى صورها وأعلاها، حيث تصبح البلاغة عندئذٍ شيئاً يكاد يشبه الإلهام.

لعلّ حديث الجاحظ عن بلاغة العرب وردّها إلى الارتجال هو أظهر المواضع التي تجلّى فيها مدى تقديره للارتجال وإعلائه من شأنه. على أن الإعجاب بالارتجال وتعظيم قدره يظهر في مواضع أخرى من "البيان والتبيين"؛ دونك حديثه عن بلاغة واصل بن عطاء وما اشتهر من أمر لثغته بالراء وكيف أنه استطاع أن يتجنب حرفاً كهذا كثير الدوران في الكلام. هذا أمر يدعو إلى العجب حقاً، ويكاد لا يصدّق لولا أن تواترت الأخبار به، ولكن ما هو أعجب منه أن ذلك لم يكن في خطب معدّة وكلام جاء بعد فكرة ورويّة، بل في كلام مرتجل: "ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً، ولطرافته معلماً، لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له. ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجّة الخصوم، ومناقلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان"[26]. ويقتبس الجاحظ في سياق تعبيره عن شدة إعجابه بقدرة واصل على استبعاد الراء في كلامه المرتجل ما قيل في ذلك كقول بشار:

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة في خطبة بدهت من غير تقدير

وقوله:

فقام مرتجلاً تغلي بداهته كمرجل القين لما حفّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر بها أحد قبل التصفّح والإغراق في الطلب

وقوله:

فهذا بديهٌ لا كتحبير قائلٍ إذا ما أراد القول زوّره شهراً[27]

وقد بلغ الإعجاب بما كان من أمر واصل بن عطاء أن عدّت بلاغته – كما رأينا في الحديث عن بلاغة العرب– نوعاً من الإلهام:

ملقّن ملهم فيما يحاوله جمّ خواطره جوّاب آفاق[28]

ومما له صلة بمسألة التلقين والإلهام هذه ما قيل في خالد بن صفوان الأهتمي، أحد الخطباء المشهورين من أصحاب الارتجال:

عليمٌ بتنزيل الكلام ملقّن ذكور لما سدّاه أول أولا

ترى خطباء الناس يوم ارتجاله كأنهم الكِروان عاين أجدلا[29]

هذا مما رواه الجاحظ مما قيل في خالد بن صفوان، فما قول الجاحظ نفسه فيه؟ يروي الجاحظ حادثة أجاب فيها خالد بن صفوان بجواب مسكت مفحم، وسترد عليك القصة مستوفاة في موضع لاحق من هذه الدراسة، فيقرّرفي غير تحفظ أنه إن كان خالد قد قال كلامه ذاك بديهة وارتجالاً "فما له نظير في الدنيا"[30]، ولعلنا لا نجد عبارة تفوق هذه في بيان ما للارتجال من منزلة رفيعة عند الجاحظ.

ثمة مواضع أخرى في "البيان والتبيين" يعبّر فيها الجاحظ عن مبلغ إعجابه بالكلام التلقائي المرتجل، وتفضيله على ما جاء عن رويّة وطول فكرة، نذكر منها ههنا ما قاله عن بلاغة الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي "كان أبلغ البلغاء و... أخطب الخطباء"، يقول الجاحظ: "فإذا رأت مكانه الشعراء، وفهمته الخطباء، ومن قد تعبّد للمعاني، وتعوّد نظمها وتنضيدها، وتأليفها وتنسيقها، واستخراجها من مدافنها، وإثارتها من مكامنها، علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استفرغهم واستغرق مجهودهم، وبكثير ِما قد خوّلوه، قليلاً مما يكون معه على البداهة والفجاءة، من غير تقدم في طلبه، واختلاف إلى أهله."[31]

- ج -

ما اقتبسناه من "البيان والتبيين" فيما مضى كافٍ في الدلالة على مبلغ إعجاب الجاحظ بالبديهة والارتجال واقتضاب الكلام. على أن للمسألة وجهاً آخر عنده، فأنت تجده في مواضع من كتابه يحضّ على التهذيب والتنقيح، ويبيّن فضيلة التثبّت والتفكّر، ويمدح الكلام البائت المحكّك، ويحذر من الرأي الفطير ومن الجواب الدّبَري. يقول في هذا الشأن: "وكانوا يأمرون بالتبيّن والتثبّت، وبالتحرّز من زلل الكلام، ومن زلل الرأي، ومن الرأي الدبري، والرأي الدبري هو الذي يعرض من الصواب بعد مضيّ الرأي الأول وفوت استدراكه"[32]، ويورد قول عبد الله بن وهب الراسبي: "ليس الرأي بالارتجال، ولا الحزم بالاقتضاب.... وخمير الرأي خير من فطيره، ورب شيء غابّه خير من طريّه"[33]، وقوله: "دعوا الرأي يغب، فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه"[34]،

وقول ابن هبيرة وهو يؤدّب بعض بنيه: "إياك والرأي الفطير، وتجنّب ارتجال الكلام"[35]، وقول البعيث الشاعر، "وكان أخطب الناس" كما يقول الجاحظ: "إني والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكّك"[36].

والتسرّع في القول قد يفضي بالمرء إلى خطأ يصعب استدراكه أو يتعذر إصلاحه. وفرقٌ بين الرأي البائت الذي يعاود صاحبه النظر فيه ويقلب الأمر على وجوهه، فيبدو له فيه ما لم يكن قد ظهر له من قبل – والرأي الفطير غير الناضج الذي لم يفكر صاحبه فيه ولم ينظر إلى ما يترتّب عليه. ولا خير في الجواب الدبري (أو كما يقول بعض أهل زماننا "الحكمة بأثر رجعي") الذي يتبيّن للمرء وجه الصواب فيه بعد أن يكون فات أوانه، وانقضى المقام الذي كان ينبغي أن يقال فيه، وأيّ فائدة في قولك: لو كنت قلت كذا كان أحسن، ولو لم أقل كذا كان أحزم؟! هذا هو مؤدّى ما ورد في "البيان والتبيين" من أقوال في الحضّ على التروّي والتفكير، إنها عبارات صريحة في النهي عن الارتجال والتحذير من عواقب التسرع في الكلام أو الاستسلام لأول خاطر، وما يؤدي إليه ذلك من خطل القول وزلل الرأي وجناية الكلام على صاحبه.

وهكذا نجد أن "البيان والتبيين"، وقد تضمّن ما يعبّر عن إعجاب لا يكاد يحدّه حدّ بالبديهة والارتجال، احتوى في الوقت نفسه ما يؤدّي إلى العكس من ذلك تماماً. وقد يقال في تفسير هذا التحوّل من الثناء على الارتجال إلى النهي عنه: إن الجاحظ إنما ينقل كلام غيره، وأن ما ورد عنده من أقوال في ذم الارتجال أو النهي عنه إنما تعبّر عن رأي أصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأيه. وفي الجواب عن ذلك نقول: إن الجاحظ قد يورد حقاً أقوالاً لا توافق رأيه، ولكنه لا يتردد بعد ذلك في ردّها ونقضها[37]، أو تقييدها وتوجيهها إذا كان لا يقبلها على إطلاقها[38]. وفضلاً عن أنه لم يعترض على ما اقتبسه من أقوال في النهي عن الارتجال والحضّ على التروّي والتثبت، فإن بعضها قد جاء به في معرض حديثه عن الشعر الحوليّ المحكّك (وسنتحدث عنه بعد قليل) لتأييد رأيه والاحتجاج بها له، وذلك يدفع ما يمكن أن يقال من أنها تعبّر عن مذهب غير مذهبه. ولا يقال أيضاً إن الاختلاف في نظرته إلى الارتجال بين مدحه وذمّه مردّه إلى أنه تناوله في مواضع مختلفة في كتابه، وأن هذا الاختلاف عائد إلى تغيّر طرأ على آرائه في هذا الأمر من موضع إلى آخر في الكتاب، ذلك أن هذا الاختلاف لم يقتصر على ما كان بين أماكن متباعدة، بل ظهر عنده (مكرراً كما سنرى) في الموضع الواحد، وعند تناوله مسألة بعينها: الشعر الحولي المحكك.

لعل أوضح ما يصوّر تردّد الجاحظ في الموضوع الذي نحن فيه إنما هو عدم ثباته على رأي واحد في مسألة الشعر الحولي المحكك الذي عُرف به زهير والحطيئة وأضرابهما من الشعراء، يقول الجاحظ في استحسان مذهب زهير وأصحابه:"ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً، وزمناً طويلاً، يردّد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله، ويقلّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله، وتتبّعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه، وإحراراً لما خوّله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليّات، والمُقلّدات، والمُنقّحات، والمُحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنذيذا وشاعراً مفلقاً"[39].

ويستمر الجاحظ في الثناء على طريقة زهير وجماعته لينتهي إلى القول:"ولا حاجة بنا مع هذه الفقر إلى الزيادة في الدليل على ما قلنا، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحوليّ المحكّك"[40]، إلى أن ينعطف فجأة فإذا بهِ ينتقد هذه الطريقة وأهلها "وكذلك كل من جوّد في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة...وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة، ولذلك قالوا في شعره [كذا] مُطرف بآلاف، وخِمار بواف"، ويورد قول الأصمعي "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر "، فالشعر" قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلّف وأصحاب الصنعة... [فلم يذهبوا] مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً"[41].

وهكذا فإن أصحاب الشعر الحولي المحكك بالغوا في التنقيح، وأفرطوا في التجويد والتهذيب، فافتقد شعرهم ما تجده في شعر الذين يسترسلون مع الطبع من نكهة العفوية، وبراءة الطبيعة، ورونق التلقائية، وجمال التدفّق والطلاقة، وشعر النابغة الجعدي يضرب به المثل في التفاوت[42]، إلا أن هذا التفاوت بعينه هو الذي فضّله على شعر أولئك عند الأصمعي والجاحظ – وليس من اليسير هنا تمييز عبارات أحدهما من الآخر كما سيأتي– فإن في هذا التفاوت أمارة على الانطلاق مع الطبيعة والقناعة بعفو الكلام، وشاهداً ببراءة هذا الشعر من الجهد والصناعة. وليس بنا حاجة إلى القول إن الاسترسال مع الطبع وما فيه من عفوية وتلقائية وتدفق إنما يكون في صورته المثلى في الكلام الذي يقال بديهة وارتجالاً.

على أن تردّد الجاحظ بين الثناء على الحولي المحكك ثم العودة عن ذلك، أو تأرجحه بين مدح هذا المذهب وأصحابه ثم التحول بعد ذلك إلى انتقادهم – لم يقتصر على هذا الموضع من "البيان والتبيين"، فقد كان عرض لهذه المسألة في موضع سابق من الكتاب[43] بما لا يخرج في مجمله عما رأيناه قبل قليل. فقد بدأ هناك بالتحذير من فرط الثقة بالنفس ومن إحسان الظن بما يقوله المرء من شعر أو كلام، وجاء بحوليات زهير مثالاً لما ينبغي أن تكون عليه الحال من التنقيح والتهذيب ومعاودة النظر، واستشهد بقول الحطيئة: "خير الشعر الحوليّ المنقح"، وحشد

طائفة صالحة من الأقوال التي رويت في الحث على الروية وإطالة الفكرة والنهي عن الارتجال والاقتضاب، لكي يعود بعد ذلك كله – كما رأينا في الموضع السابق– إلى رأي الأصمعي في تفاوت شعر النابغة الجعدي، وأن الأصمعي كان "يفضّله من أجل ذلك، وكان يقول: الحطيئة عبد لشعره، عاب شعره حين وجده كله متخيّراً منتخباً مستوياً لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه"[44].

وبعد أن عرضنا ما ورد في كلّ من الموضعين السابقين- وهما من أهم المواضع في "البيان والتبيين" مما له علاقة بالمسألة التي يدور هذا البحث عليها- نقف عند ما جاء به الجاحظ، على لسانه أو على لسان غيره، لنسجل الملاحظات الآتية، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ووعدناك أن نستأنف القول فيها ههنا:

- ما ورد في الموضعين المذكورين تتكرر فيه الآراء نفسها، وذِكرُ الجاحظ تلك المسائل في موضعين متباعدين والإلحاح على الأفكار نفسها يستبعد أن تكون آراؤه في هذا الشأن- على ما بينها من تعارض- آنيّة، وينفي عنها كونها خواطر عارضة، بل يدل على أن الجاحظ يقول بقول اختاره، ويرى رأياً يعتقده، أدرك ما بين جوانبه من تعارض أم لم يدرك.

- لم يكن التعارض أو الاختلاف في مذهب الجاحظ في الحولي المحكك ناشئاً عن أنه استحسنه في موضع وعابه في الموضع الآخر، مما يمكن أن يُفسَّر على أنه اتخذ موقفاً ثم تحوّل عنه فيما بعد، بل هو كما رأينا يبدأ في كل موضع منهما بمدح الحولي المحكك، ثم لا يلبث أن يتراجع عن رأيه هذا في ذلك الموضع بعينه، وهذا يفصح عن مدى ما يعانيه الجاحظ من تردد في هذه المسألة، ولا يشير إلى تغيّر في آرائه أو تطوّر فيها. وكون هذا التحوّل في رأيه قد تكرر كما رأينا يجعل الأمر شيئاً يشبه أن يكون نوعاً من الحيرة يتجاذب صاحبها رأيان، يحار في أمره أيهما يأخذ أو يدع.

- الأقوال التي يرويها الجاحظ في استحسان الشعر الحولي المحكك أو عيبه تعبر عن رأيه، ويوردها من باب الاحتجاج بها والاستناد إليها، لا من قبيل استعراضه لآراء قيلت في هذا الموضوع لا تعبر إلا عن رأي قائليها. هذا واضحٌ لا خفاء فيه فيما يتصل بالأقوال التي سيقت في الحث على التنقيح والنهي عن الارتجال والتسرع؛ يدلّك على ذلك ما اقتبسناه منه سابقاً من قوله: "ولا حاجة بنا مع هذه الفقر إلى الزيادة في الدليل على ما قلنا، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولي المحكك". وما جاء عنده مما قيل في الاعتراض على هذا المذهب وعيبه وفي الذهاب مع الطبع والعفوية هي أيضاً أقوال وردت على سبيل الاستئناس بها والاتكاء عليها، وآية ذلك أن كلام الجاحظ في هذا الشأن يتداخل- كما تقدم القول- بكلام الأصمعي إلى الحد الذي يصبح فيه الفصل بين الكلامين أمراً يكاد يكون متعذراً. يصعب القول مثلاً إن كان ما اقتبسناه سابقاً في وصف "مذهب المطبوعين الذين تأتيهم

المعاني سهواً ورهواً، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً" هو من كلام الجاحظ نفسه أم من كلام الأصمعي[45]. العبارات نفسها أشبه بلغة الجاحظ لا الأصمعي، ولكن هب الكلام للأصمعي بلفظه ومعناه، أو أن الجاحظ يؤدّي كلام الأصمعي بالمعنى لا باللفظ، فأي فرق بين هذا الكلام وما ورد في مواضع أخرى في "البيان والتبيين" من إنشاء الجاحظ نفسه، كقوله: "والذي تجود به الطبيعة، وتعطيه النفس سهواً رهواً... أحمد أمراً، وأحسن موقعاً من القلوب"[46]، وقوله- فيما اقتبسناه منه سابقاً- في وصف بديهة العرب وارتجالهم: "فتأتيه [أي العربي] المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً"؟

وبقطع النظر عما رواه الجاحظ من أقوال في هذا الاتجاه أو ذاك، فإن الكلام الذي عبر به عن رأيه هو، ونطق بلسانه لا بلسان غيره صريح في أن له رأيين في المسألة، وكافٍ في الدلالة على افتقار مذهبه في الارتجال أو التروي إلى الاتساق والانسجام، فقد كتب– فيما اقتبسناه من قبل– قطعة بليغة في مدح الارتجال عندما تحدث عن بلاغة العرب، فضلاً عما أوردناه له من أقوال في مواضع أخرى تبيّن مدى إعجابه بالارتجال الذي يرتقي بصاحبه إلى أن يكون "ما له نظير في الدنيا"، وكتب أيضاً قطعة لا تقل عنها بلاغة في الحثّ على التروي الذي وجد نموذجه الأعلى في الشعر الحولي المحكك والثناء على من اصطنع هذه الطريقة التي تصيّر صاحبها "فحلاً خنذيذاً، وشاعراً مفلقاً".

- هـ -

ما ذكرناه فيما تقدّم يدل دلالة واضحة على تردّد الجاحظ بين الافتتان بالبديهة والارتجال والدعوة إلى ما هو بخلاف ذلك من تروٍّ وتنقيح وتحكيك، وأن هذا التردد متأصّل مستحكم، وليس أمراً عارضاً طارئاً. لقد أشرنا إلى ما بدا وكأنه حيرة الجاحظ في هذه المسألة، على أن هذه الحيرة تنتقل منه إلى قارئه، ويحار المرء حقاً في أمر الجاحظ ههنا، فكيف يُتصوّر أنه قد ذهل عن ملاحظة التعارض بين ما يقوله وما كان قاله ولم يكد يفرغ منه قبل ذلك دون أن يفصل بين القولين فاصل؟ وإذا كان قد سها عن ذلك في موضع، فكيف عاد إلى الوقوع فيه في غير هذا الموضع؟ من الصعب التصور أن مفكراً في منزلة الجاحظ ذهب عنه أن مقالته في مسألتنا التي نحن فيها لا تستقيم أوائلها مع أواخرها، بل يتبرّأ بعضها من بعض على نحو واضح لا يغيب عمّن هو أدنى منه بطبقات. واضحٌ أن الأمر يستدعي وقفة متأنّية.

أغلب الظن أن هذا الأمر لم يفت الجاحظ، وأنه قد تنبّه إلى عدم استقراره على رأي واحد في مسألة الارتجال والتروي، وأن مذهبه في هذا الباب متنافر غير متّسق، وكأنه أراد أن يحلّ هذا الإشكال، وأن يعيد إلى مقالته ما تفتقر إليه من تآلف وانسجام، فذهب فيما يشبه أن يكون استدراكاً على ما أطلقه من أحكام وآراء عرضناها فيما سبق- ذهب إلى أن لكل من الارتجال

والتنقيح مواطن تليق به، ومقامات هي به أولى، وهكذا فإن أياً منهما يصلح أو يُستحسن في موقف دون موقف، فهو يرى أن "من تكسّب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة، وجوائز الملوك والسادة، في قصائد السِّماطين، وبالطِّوال التي تُنشد يوم الحفل، لم يجد بُدّا من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما، فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود، ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثلَ تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب، اقتداراً عليه، وثقةً بحسن عادة الله عندهم فيه. وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمّات الأمور، ميّثوه في صدورهم، وقيّدوه على أنفسهم، فإذا قوّمه الثِّقاف وأُدخل الكير، وقام على الخِلاص، أبرزوه محكّكاً منقحاً، ومصفّى من الأدناس مهذّباً"[47].

هذه الفقرة تضمنت أموراً ثلاثة:

1- ثمّة فرق بين الشاعر والخطيب في هذا الباب، فالجاحظ يرى الارتجال ألصق بالخطابة وأمسّ رحماً بها منه بالشعر، ولعل ذلك عائد في رأيه إلى أن الشعر مقيّد بالوزن والقافية، فلا بد فيه من قدرٍ ما من الصنعة والكلفة، ولاسيما في المطوّلات. وفي التعليق على كلام الجاحظ نقول: إن الارتجال مرتبط عادة بالخطابة، وقلما تجد كتاباً في هذا الفن لا يكون الارتجال واحداً من موضوعاته[48]، وفي رأي بعضهم أن "القدرة على الارتجال ألزم الصفات للخطيب"[49].

2- الشعر ليس كله من طراز واحد، فالمتكسب بشعره ومن ينشد في ملأ من الناس لا بد له من معاودة النظر فيه، ووزن كلامه بميزان دقيق، والتفكير في عباراته وألفاظه ودلالاتها وإيحاءاتها حتى يتّقي عيب العائبين وتعقّب المتعقّبين، ولكي تحقق القصيدة غرضها في نيل جوائز الممدوحين وصلاتهم، فإذا أخذ الشاعر في غير ذلك كالنسيب أو الحنين إلى الأوطان أو شكوى الزمان ترك نفسه على سجيّتها، مثل ذلك- إذا التمسنا مزيداً من الإيضاح- مثل الفرق بين ما يقوله المرء بين أهل بيته ومعارفه وأصدقائه وما يقوله في مجالس الكبراء وبلاط الحكام، أو كالفرق بين الرسائل الإخوانية والرسائل الرسمية التي يكتبها الكاتب عن أمير أو سلطان.

3- الخطب أيضاً وإن كانت أقرب من الشعر إلى البديهة والارتجال ليست كلها من صنف واحد، فالخطبة في أمر جلل لابد فيها من إعادة النظر وتقليب الرأي على وجوهه المختلفة، والتثبّت من دقة المعلومات، والتفكير في العواقب وما أشبه ذلك، فثمّة مواقف لا يكفي فيها أن يكون الخطيب "ذا بيان ولسن وحضور بديهة"[50]، وهنا أيضاً قد نقول على سبيل الإيضاح: إن المتحدث في خطبة زواج أو الترحيب بقادم أو توديع مسافر ليس كالمحامي

الذي يترافع أمام هيئة قضائية، وما يتطلبه ذلك من دراسة البيّنات ومراجعة مواد القانون وما إلى ذلك.

هذه استدراكات أراد بها الجاحظ معالجة الخلل في مقالته في الارتجال من حيث احتواؤها على الرأي وعكسه. على أن سعي الجاحظ هنا للخروج من شبهة التناقض لم يؤدّ إلى إزالة التعارض بين آرائه في هذا الموضوع وتردّده في الثبات على مذهب بعينه. قد تبدو تلك الاستدراكات كأنها خفّفت على الأقل حدّة التعارض والتردّد أو قلّصته، ولكنها في حقيقة أمرها زادته اتساعاً، فقد صارت آراؤه في الارتجال ثلاثة (بعد أن كان له فيه رأيان اثنان): الافتتان به، ثم انتقاده وعيبه، ثم الذهاب إلى أنه مستحسن في أحوال ومواقف مخصوصة، وهذا يبيّن الصعوبة التي يواجهها الجاحظ في الاختيار من بين الآراء التي يحتملها هذا الموضوع، فإنك إذا طلبت إلى محاورك أن يرى رأياً في الارتجال، فإما أن يستحسنه ويعجب به، أو ينهى عنه ويحذّر من تبعاته وعواقبه، أو يقول إنه ليس محموداً في كل حين، ولا مذموماً في كل وقت، بل يُستحسن في موقف دون موقف. وقد رأيتَ فيما تقدم أن الجاحظ يتنقل بين هذه الاختيارات الثلاثة، وليس بقادرعلى أن يتبنّى واحداً منها بعينه ويترك ما سواه.

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن الجاحظ يتنقل بين تلك الآراء الثلاثة حتى في الموضع الواحد من "البيان والتبيين"، ونضيف هنا أنك لو رجعت إلى المواضع من كتابه التي تطرق فيها إلى مسألة الارتجال فإنك واجدٌ أن فتنته بالارتجال موزّعة بين أوائل كتابه وأواسطه وأواخره، وتجده مع ذلك يقف بين موضع وموضع منها ليحذّر من الرأي الفطير والقول الدبري وينهى عن ارتجال الكلام واقتضابه في عبارات صريحة لا تحتمل التأويل، مما يؤكد ما قلناه سابقاً من أنه لا وجه لتفسير تردده بين تلك الآراء على أنه ذهب مذهباً ثم تحوّل عنه وهجره، بمعنى أن تغييراً قد حدث في ذلك المذهب، فهو مازال مصرّاً على ترديد عبارات الإعجاب بالارتجال، تجدها في بدايات كتابه كما تجدها في نهاياته، ثم تجده بين حين وآخر ينثر أقوالاً له أو لغيره في ذم الارتجال والدعوة إلى التروّي والتثبت والتحكيك. ذلك كله يجعل الحديث عن اختلاط الأمور عند الجاحظ أو تردّده في هذا الشأن مما لا يحتاج إلى فضل قول ومزيد بيان.

- و-

هكذا تبدو الأمور مختلطة في ذهن الجاحظ، وقد قصدنا قصداً أن ندفع بأفكاره وفق تلك القراءة الظاهرية إلى نهاياتها المنطقية ليتبيّن لك مدى ما تصوّره عباراته إذا حُملت على ظاهرها من حيرة وتردّد. ولكن لعل الأشياء أن تكون في حقيقة أمرها غير ما هي عليه في ظواهرها. هذه فرضية نريد فيما يأتي أن نتحقّق منها، أو هو احتمال إذا قام الدليل عليه أو وُجد له ما يسوِّغه، فإن ذلك يساعد في حلّ الإشكال الذي نحن بصدده.

اختلاط الأمور على النحو الذي وصفناه عائد فيما نرى إلى أن موضوع الارتجال يتضمن مسائل متشابكة يداخل بعضها بعضاً، إذ يحتاج البحث فيه إلى التمييز بين ما للكلام وما هو للمتكلم، ويحتاج كذلك إلى التفريق بين عمل الناقد ووظيفة معلم البيان. وإذا حُرِّرت هذه المسائل وخُلِّصت بعضها من بعض، فلعلنا نجد أن ما صوّرناه لك من تردد الجاحظ أو حيرته لا يعدو أن يكون أمراً ظاهرياً. لم يعتنِ الجاحظ بتحرير هذه المسائل وعزل بعضها عن بعض، ولو فعل لنفى عن مقالته في الارتجال ما يبدو للناظر فيها من تنافر وعدم اتساق.

موضوع الارتجال يَحتمل البحثَ فيه من زوايا أو جوانب مختلفة، فإذا نظرت إليه من هذا الجانب كان لك فيه رأي غير الرأي الذي تراه إذا نظرت إليه من جانب آخر، وما تتّجه إليه عنايتك عندما تتناوله من هذه الزاوية مختلف عمّا يسترعي اهتمامك إذا بحثت فيه من زاوية غيرها. لا يعني هذا أن ثمّة تنافراً بين تلك الآراء، ولكنه يدلّ على أن للموضوع نفسه وجوهاً مختلفة. هذه هي الحال مع الجاحظ، فإذا وجدته يفاجئك بالتحوّل عن الرأي إلى خلافه حتى في الموضع الواحد كما رأينا، فليس يدلّ ذلك على أنه ينقض الآن ما أبرمه قبل قليل، فقد رأيتَ إصراره على الرأيين معاً من بداية كتابه إلى نهايته، وإنما هو تحوّل في النظر إلى الموضوع من زاوية إلى أخرى[51]، والتحول في زاوية النظر يؤدّي به إلى وجهة نظر أخرى دون أن يعني ذلك أن وجهة النظر السابقة عليها أصبحت باطلة أو مهجورة، بل كل منهما تؤلف في سياقها الخاص بها جزءاً من مذهبه في هذا الموضوع.

تقدّم القول إن البحث في الارتجال يقتضي التفريق بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم، والتفريق بين الأمرين- وإن كان في غير السياق الذي نحن فيه- تقليد قديم اتبعه فريق من البلاغيين[52]. والكلام المرتجل كلام ترى قائله وتسمعه (أو تروي عمّن رآه وسمعه، وإلا لما عرفت أنه قيل ارتجالاً)، وهذا يفتح باباً للتداخل بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم، ويجعل الحدود بينهما مبهمة. ومن الضروري التمييز بينهما لحلّ الإشكالات التي رأيناها في مقالة الجاحظ في هذا الشأن، ونؤمّل أننا بهذا التمييز نستطيع التوفيق بين آرائه التي تبدو متضاربة، والتوفيق بين هذا الآراء ينتهي بنا إلى إعادة الانسجام إلى مذهبه في مسألة الارتجال. وعندما ننظر في الارتجال في سياق الحديث عن الكلام والمتكلم، فإن من الواضح أن الارتجال يتصل ببلاغة المتكلم، فهو شاهد على سرعة بديهته، وناطق بحضور ذهنه، ومعبّر عن طلاقة لسانه، فأما الكلام فإنه إما أن يكون جيداً في نفسه وإما أنه ليس كذلك، بصرف النظر عن كونه مرتجلا أو صادراً عن فكر وروية. فإذا تحققت بلاغة الكلام بأن تتوافر فيه خصائص الجودة الذاتية، وكان في الوقت نفسه مرتجلا مقتضباً من غير سابق إعداد وتفكير، فإن ذلك يدعو إلى الإعجاب بالمتكلم وقدرته المتميزة على أن يأتي بذلك الكلام البليغ على البديهة.

ولعل قصة خالد بن صفوان- وقد أشرنا إليها بإجمال فيما سبق ووعدناك أن نأتي بها مستوفاة- توضح ما ذهبنا إليه: روي أن قوماً من اليمانية فخروا عليه في مجلس أبي العباس السفاح "وأكثروا في القول، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وأهله. قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته فقل. قال خالد: وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد، ودابغ جلد، وسائس قرد، وراكب عرد، دلّ عليهم هدهد، وغرّقتهم هرّة، وملكتهم امرأة". وهذا كلام بليغ وجواب مسكت، وقد نال من استحسان الجاحظ ما يعبّر عنه قوله: "فتأمل هذا الكلام، فإنك ستجده مليحاً مقبولاً، وعظيم القدر جليلاً، ولو خطب اليماني بلسان سحبان وائل حولاً كريتاً ثم صُكّ بهذه الفقرة ما قامت له قائمة". هذا عن الكلام نفسه، فأما المتكلم، فقد صوّر الجاحظ مدى إعجابه به حيث يقول: "فلئن كان خالد قد فكّر وتدبّر هذا الكلام إنه للراوية الحافظ والمؤلف المجيد، ولئن كان هذا شيئاً حضره حين حُرّك وبُسط فما له نظير في الدنيا"[53]. ومعنى كلام الجاحظ ههنا أن جواب خالد بن صفوان بليغ في حد ذاته، سواء أكان مرتجلاً أم غير مرتجل. أما خالد فإن ثمّة فرقاً بين أن يكون قد أعدّ جوابه هذا وأن يكون قد قاله على البديهة، فإن كانت الأولى فالرجل بليغ حقاً، وإن كانت الثانية "فما له نظير في الدنيا". ولعل هذا يوضّح ما قصدناه من أن الارتجال أمر يختص ببلاغة المتكلم. ولست تجد بين البلاغيين الذين نعرفهم من اعتنى بالمتكلم وهيئته وسمته وإشارته وعيوبه وغير ذلك كما اعتنى الجاحظ، وفكرة الربط نفسها بين الارتجال وبلاغة المتكلم لم تكن غائبة كلياً عن ذهن الجاحظ كما ترى في تعليقه على قصة خالد بن صفوان، فقد مسّها مسّاً رفيقاً ولم يعتنِ بتوضيحها أو تحرير القول فيها.

ومن الواضح أن قدرة المتكلم على الارتجال (مع الإصابة والإجادة) مظهر من أهم مظاهر بلاغته عند الجاحظ، ووجه من أكثر الوجوه تعبيراً عن قوّة طبعه وموهبته، بل لعله ليس من المبالغة القول إن الارتجال أهم تلك المظاهر والوجوه عنده على نحو ما سبق في حديثه عن بلاغة العرب الذين يرى فيهم المثل الأعلى للبلاغة، وأن ذلك إنما يتجلى بوجه خاص في قدرتهم على البديهة والارتجال، وكذلك ما قاله قبل قليل في قصة خالد بن صفوان وأنه "ما له نظير في الدنيا" إذا كان قد قال ما قال ارتجالاً، وما رأيناه في موضع سابق من عدّه الارتجال شيئاً شبيهاً بالإلهام. وابن وهب الكاتب، أحد المتأثرين بقوة بكتاب "البيان والتبيين" إنما يعبّر عن رأي الجاحظ عندما قرّر أن "من أتى بالبديهة ما يأتي به غيره بعد التروية، فذلك الخطيب الذي لا يعادله خطيب، والأديب الذي لا يوازنه أديب"[54].

وإعلاء الجاحظ من شأن الارتجال في مواضع متعددة من كتابه يدلّ دلالة كافية على مدى تمكن هذا الرأي ورسوخه في فكره، وأنه ليس مجرد نظرة آنيّة لا يلبث أن يعود عنها ويتحلّل منها. وقد دعاه إلى هذا الرأي إعجابه ببلاغة المتكلم الذي يستطيع أن يقول على البديهة ما

يساوي في بلاغته وجودته ما يأتي به غيره بعد معاناة ومشقّة، وإعداد وتفكير، وحذف وزيادة، بل ربما يتفوق عليه. ومصدر العجب هنا أن هذه قدرة خارجة عما هو مألوف ومعتاد حتى أشبهت أن تكون إلهاماً وتلقيناً. وشبيه بموضوع الارتجال من هذا الوجه، أي الخروج على المألوف ومن ثمّ في كونه داعياً إلى العجب، ما يروى عن شعراء مثل طرفة بن العبد وعبد يغوث الحارثي ممن قالوا وأجادوا وهم يقدَمون إلى القتل، وهي حال يتعسّر فيها على المتكلم القول في المألوف المعتاد، ولكن هؤلاء قالوا وأحسنوا، فكان أمرهم داعياً إلى العجب، يقول الجاحظ: "وليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث؛ وذلك أنّا إذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية"[55].

على أنه مهما بلغ إعجابنا بمن يقول ارتجالاً أو قال وقد قدِّم لتضرب عنقه أو ما شابه ذلك من أحوال تدعو إلى العجب لمخالفتها ما هو معتاد أو متوقّع، فإن بلاغة الكلام في نفسه هي مطلوبنا في كل كلام بغضّ النظر عن الكيفيّة التي صدر بها. لم يكن أمر طرفة وعبد يغوث داعياً إلى العجب عند الجاحظ لأنهما قالا شيئاً ما في موقف يحول فيه الجريض دون القريض إذا استعرنا عبارة عبيد بن الأبرص[56]- بل لأن "جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية"، كذلك لا يكون عنده خالد بن صفوان "ما له نظير في الدنيا" (إذا كان قد قال ما قال بديهة وارتجالاً) لمجرد أنه تحدّث ولم يتهيّب في الرد على اليمانيّة، بل لأنه قال كلاماً "عظيم القدر جليلاً، ولو خطب اليمانيّ بلسان سحبان وائل حولاً كريتاً، ثمّ صُكّ بهذه الفقرة ما قامت له قائمة"، ولأنك:

ترى خطباء الناس يوم ارتجاله كأنهم الكروان عاين أجدلاً

وكذلك يقال في ارتجال واصل بن عطاء، فإنه مع تجنبه الرّاء أتى بكلام "مسكت مخرس عن كل تحبير"[57].

ولا يحتاج المرء إلى مزيد من الأمثلة للتدليل على أن الارتجال الذي يثني عليه الجاحظ مشروط بالإجادة، فإن بلاغة الكلام هي الأصل وبلاغة المتكلم كالفرع عليها، فإنه إنما استحقّ أن يسمّى بليغاً لأنه قال كلاماً بليغاً. والقائل على البديهة يكون أهلاً للثناء عندما يصحّ أن يقال فيه:

بديهته وفكرته سواء إذا بعد الصواب من المشير[58]

أي أن كلامه استوفى شروط الجودة كما لو كان قد أعدّه وفكّر فيه. وفي مقابل ذلك فإن أي كلام يخلّ بتلك الشروط مطّرح مسترذل، مرتجلاً كان أم مروّى، بل يكون الكلام المرتجل هنا، أي في حال افتقاره إلى الإجادة والإصابة، أدعى إلى لوم صاحبه، إذ كان من الممكن ألاّ يقع فيما وقع فيه من زلل وخطل، وأن يتفادى سقطات القول وعثرات اللسان، لو أنه تدبّره وفكر فيه قبل أن

ينطق به. هنا يصبح الارتجال تسرّعاً مذموماً يُهجى به صاحبه على نحو ما أورده الجاحظ من قول الشاعر:

ويرتجل الكلام وليس فيه سوى الهذيان من حشد الخطيب[59]

وقد تقدم القول في أن الارتجال (مع الإصابة) أدلّ على قدرة المتكلم وسرعة الإجابة في طبعه من إطالة الفكرة، وأدعى إلى العجب، إلا أن هذا العجب نفسه ناشئ عن أن الارتجال ظاهرة استثنائية، فلا يتأتّى إلا للأفراد القلائل من البلغاء، أما أكثر البلغاء فإنهم لا يستغنون عن الإعداد ومعاودة النظر فيما ينشئون. وبلاغة الكلام وهي الغاية التي يسعى إليها كل متكلم – ارتجل أم روّى- لا تتحقق فيما ينشئه هؤلاء الأدباء إذا قال الواحد منهم على البديهة وتسرّع في قبول كل خاطر يرد عليه، فكان عليه أن يعاود النظر فيه ويتعهّده بالتنقيح والتهذيب ونفي ما قد يكون أخطأه التوفيق فيه. وهكذا فإذا رأيتَ الجاحظ يحضّ على التروّي والتهذيب وأن يتّهم المرء رأيه وعقله، فإنما يكون ذلك إشفاقاً منه على بلاغة الكلام من أن يجني عليها القائل بتسرّعه واستحسانه كل ما يجري على لسانه. كما أن ثمة حالات مخصوصة تستدعي الاحتشاد لها، ولابدّ فيها من طول التفكّر والاجتهاد في التنقيح، كتلك التي أشار إليها الجاحظ من خطب تقال في مهمات الأمور ومدائح تنشد يوم الحفل.

وشبيه بذلك ما تناوله الجاحظ في غير "البيان والتبيين" وألحّ عليه من ضرورة التنقيح ومعاودة النظر في تأليف الكتب على نحو ما يصوّر ذلك قوله: "وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعُجباً، فإذا سكنت الطبيعة... أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقّف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب."[60] ومؤلف الكتاب ليس شاعراً يتغزل أو يشكو الزمان أو اشتد به الحنين إلى الوطن، وإنما يضع بين يدي قارئه علماً وفكراً، لا جرم كان في حاجة إلى التثبّت من صحة معلوماته ووجاهة آرائه وأفكاره. فلما كانت مثل هذه المقامات من خطب في مهمات الأمور ومدائح يوم الحفل وكتب مؤلفة – لا تتيسّر الإجادة فيها عند القول على البديهة، كان النهي عن الارتجال فيها، لا أن الارتجال غير محمود في نفسه. هب شاعرين اثنين أو خطيبين قالا في موقف من تلك المواقف، وتساويا في الجودة، وكان أحد الخطيبين أو الشاعرين قد قال ارتجالاً، والآخر تهيّأ لهذا الموقف وأعدّ له ونقّح كلامه، فما ظنك فيما سيقوله الجاحظ في هذا الشأن؟ مما لا شك فيه أن الأول منهما سيكون عند الجاحظ "لا نظير له في الدنيا". أما إذا تخلف عن صاحبه وقصّر دونه، فإن الجاحظ سيقول له: ما كان ينبغي لك أن تقول في هذا الموقف على البديهة، فهذا موضع تصعب الإجادة فيه ارتجالاً.

ولعلنا نستطيع أن نوجز رأي الجاحظ في مسألة الارتجال بالاتكاء على ما أورده من قول صُحار العبدي - وقد سأله معاوية بن أبي سفيان عن معنى البلاغة-: "ألا تبطئ، ولا تخطئ"[61]، وفحوى كلامه أن البلاغة (بلاغة المتكلم)، تنتظم أمرين: سرعة الجواب (الارتجال)، والإصابة في القول، فإذا اجتمعا للمرء كان على درجة رفيعة من البلاغة. ولكن تحقق الأمرين معاً لا يتهيّأ لكثير من الناس، وإذا كان لا مناص لنا حينئذٍ من التضحية بأحدهما فليكن ذلك سرعة الجواب، أملا في أن نظفر بالأمر المهم وهو القول الصواب. ومن مرويّات الجاحظ في سياق الارتجال والتنقيح أن شاعراً قال لآخر: "أنا أقول في كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها في كل شهر، فلمَ ذلك؟" قال: "لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبل من شيطانك"[62]، فهو ينتقده في كونه يتساهل في أمر جودة الكلام وبلاغته أو يضحّي بذلك من أجل أن يقول قصيدة في كل ساعة، وهذا هو مذهب الجاحظ نفسه.

وثمّة مَن يرى مِن البلاغيين والنقاد أن القائل على البديهة أعذر ممن يقول على الرويّة، ويُقبل من الأول ما لا يقبل من الثاني، لكون هذا الثاني في سعة من أمره خلافاً لمن يقول ارتجالاً[63]. هذه الفكرة لا نجدها في "البيان والتبيين"، وعدم تطرق الجاحظ إليها أو إلى ما له صلة بها ناشئ فيما نظن عن أنه لا يجيز التهاون في شرط الصواب والإجادة أو التسامح في هذا الجانب، وعامّة حديثه في هذا الموضوع يؤيّد ما قلناه. لقد رأينا فيما سبق أن التفاوت في شعر النابغة الجعدي مثلاً مقبول، ليس لكونه مضطراً إليه أو معذوراً فيه، بل هو مستحسن في كونه يشهد ببراءة هذا الشعر من أثر الصناعة والكلفة. وإذا أردت أن تتبيّن الفرق بين المذهبين: مذهب الجاحظ ومذهب أولئك، فدونك ما يقوله أحدهم في فقرة لا يخفى عليك صلتها بما اقتبسناه من تفريق الجاحظ بين المقامات التي يقال فيها الشعر العفوي وتلك التي يناسبها الشعر المحكّك، يقول ابن رشيق: "وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته، من مزح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية وما أشبه ذلك غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين: يُقبل منه في تلك الطرائق عفو كلامه، وما لم يتكلف له بالاً، ولا ألقى به، ولا يقبل منه في هذه إلا ما كان محككاً معاوداً فيه النظر، جيداً لا غثّ فيه ولا ساقط ولا قلق"[64]. يكاد يكون من المؤكّد أن ابن رشيق هنا يستمدّ من الجاحظ وينقل عنه، ولكن الفرق كبير بين الفكرة كما وردت عند الجاحظ والطريقة التي قدّم بها ابن رشيق الفكرة نفسها. ابن رشيق يرى أن "الشاعر الحاذق المبرّز إذا صنع على البديهة قُنع منه بالعفو اللين والنزر التافه، لما فيها من المشقة"[65]، وانسجاماً مع رأيه هذا، أعاد صياغة فكرة الجاحظ فجعل "شعر الشاعر لنفسه" يقبل فيه ما ليس مقبولاً في "قصائد الحفل" من كلام غثّ أو ساقط أو قلق. والفكرة في أصلها عند الجاحظ لا يمكن أن تُفهم على هذا النحو، بل المفهوم من كلامه أن ما سوى قصائد الحفل يُستحسن فيه أن يكون عفوياً لا أثر

للجهد فيه، وبين أن يكون الأمر على هذا الوجه وأن يكون من باب مسامحة الشاعر وغض الطرف عن هفواته فرق واسع.

- ز -

كان التمييز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم وسيلة توسّلنا بها إلى بيان حقيقة مذهب الجاحظ في الارتجال، وههنا أمر آخر أشرنا إليه فيما سبق يساعدنا في هذا الشأن: الجاحظ معلم للبيان حيناً، وناقد للأدب حيناً آخر. ومن المؤكد أن ازدواجية الوظيفة التي أسندها إلى نفسه كان لها أثر في ازدواجية نظرته في الموضوع الذي نبحث فيه، فالجاحظ الناقد مفتون بالارتجال أشدّ الفتنة، ويرى فيه أمارة على موهبة نادرة فائقة تتجاوز حدود المألوف، وثناؤه على من مُنح هذه الموهبة لا يحدّه حدّ كما هو واضح في عباراته التي اقتبسناها فيما تقدّم. فإذا تحوّل إلى الوظيفة الأخرى وجعل من نفسه معلماً للبيان يتوجّه بخطابه إلى ناشئة المتأدّبين، كان لا بد من أن يختلف الأمر. وهكذا نجد مرة أخرى أن الاختلاف في آرائه مرجعه اختلاف الزاوية التي ينظر منها إلى الموضوع.

وليس من المتوقع من الجاحظ أو غيره ممن جلس مجلس التعليم أن يحسّن الارتجال في عيون الناشئة وهم ما زالوا يخطئون ويصيبون، ولا أن يشجّعهم على ترك المراجعة وإعادة النظر، والقناعة بما تأتي به البديهة وهم ما زالوا في حاجة إلى المزيد من الدربة والتمرين، فالجاحظ يدرك ما جُبلت عليه النفوس من فتنة المرء بكلامه وبابنه ويحذّر في "البيان والتبيين" وغيره من مؤلفاته من عواقب ذلك[66]، وهؤلاء الناشئة من المتأدبين أحوج الناس إلى هذا التحذير، فهم أكثر اندفاعاً وأشد حماسة في هذا الشأن، أي في فرط الإعجاب بمحاولاتهم الأدبية، وهي محاولات غير ناضجة في العادة، وفيها كثير من أوجه الخلل والقصور، بل ربما كان بعضها محاولات لا جدوى منها ابتداءً، يريد صاحبها أن يُعدّ في الأدباء والخطباء وليس بينه وبين الأدب سبب، ولا بينه وبين الخطابة نسب، وكان ينبغي له ألا يقحم نفسه في هذه الصناعة أصلاً. من هنا وجد الجاحظ أنه في حاجة وهو يخاطب هؤلاء الناشئة إلى الإلحاح على التأنّي والتروّي، وإلى حثّهم على عدم الإسراع في إذاعة محاولاتهم على الناس قبل أن يتثبّتوا من أن ما يحاولونه يستحقّ أن يسمّى أدباً، وبعد ذلك يتعهّدونها بالصقل والتهذيب والتنقيح.

وإذا عدنا إلى أهم المواضع التي ورد فيها النهي عن الارتجال في "البيان والتبيين"، فإننا واجدون أن هذا النهي قد جاء في سياق تعليمي بحت، وأن كلام الجاحظ قد جاء في نبرة تعليمية واضحة وعالية، وأنه توجّه بكلامه إلى ناشئة المتأدبين على وجه التحديد، فقد بدأ حديثه في الشأن الذي نتحدث فيه بمخاطبة هؤلاء الناشئة: "فإن أردت أن تتكلّف هذه الصناعة وتُنسب إلى هذا الأدب، فقرضت قصيدة أو حبّرت خطبة أو ألّفت رسالة، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، أو

يدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدّعيه، ولكن اعرضه على العلماء... فإن رأيت الأسماع تصغي له، والعيون تحدج إليه، ورأيت مَن يطلبه ويستحسنه، فانتحله، فإذا عاودت أمثال ذلك مراراً، فوجدت الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية، فخذ في غير هذه الصناعة"[67]، فالجاحظ هنا يحّث المتأدبين على ألاّ يتعجل الواحد منهم في إعلان أدبه ونشره كما قلنا قبل قليل، قبل أن يستوثق من قيمته وحسن وقعه، كما يحثّه على ألّا يتعجّل في الانتساب إلى هذه الصناعة قبل أن يتحقّق من أنه غير متطفّل عليها، وأنه خُلق لها لا لغيرها. وبعد ذلك يتابع الجاحظ التحذير من ثقة المرء بنفسه وفتنته بكلامه في فقرة ننقلها كما نقلنا الفقرة السابقة لما تصوّره من اتجاه تعليمي واضح؛ يقول: "فلا تثق في كلامك برأي نفسك، فإني ربما رأيت الرجل متماسكاً وفوق المتماسك، حتى إذا صار إلى رأيه في شعره وفي كلامه وفي ابنه، رأيته متهافتاً وفوق المتهافت"[68]. ولكي يؤكّد الجاحظ في ذهن المتأدبين هذه الفكرة، فكرة التأني والتروّي واتّهام النفس، يحشد لهم أقوالاً لخطباء معروفين في النهي عن الارتجال والرأي الفطير، ويأتي لهم بأمثلة من زهير وأضرابه ممن ذهبوا في التنقيح كل مذهب، فلمّا كان شاعر في منزلة زهير يردد نظره في القصيدة حولاً كاملاً اتهاماً لعقله، وتتبّعاً على نفسه، وإشفاقاً على أدبه كما يقول الجاحظ فيما نقلناه منه سابقاً، فحريٌ بناشئة المتأدبين ألا يدفعهم فرط الثقة بالنفس إلى الرضى بكل خاطر. فإذا فرغ الجاحظ من إبلاغ رسالته في نصح هؤلاء المتأدبين بالتروي، وحذّرهم عواقب التسرع، وأيّد كلامه بما أُثر عن شعراء وخطباء، وتحوّل عن وظيفة معلّم البيان إلى وظيفة الناقد- رجع إلى مذهبه المتأصّل في نفسه في الافتتان بالكلام الذي يأتي سهواً رهواً، ذلك الكلام الذي يتجلّى في أنصع صوره فيما جاء بديهة وارتجالاً.

وتعليم البيان يعود بنا إلى مسألة الكلام والمتكلم، وإلى أن الارتجال المحمود أمره لا ينفكّ عن الإجادة والإصابة، وأنه بمعزل عنهما يستحيل تسرعاً مذموماً يُعاب به صاحبه. والمتكلم هنا أديب ناشئ ما زال يتعثّر في خطواته حتى وهو يقول بعد معاودة النظر ومراجعة النفس، فكيف به إذا قال ارتجالاً؟ هذا الأمر شبيه بما سبق ذكره من مقامات لا يناسبها الارتجال، فكما أن هذه مقامات لا يُتوقع أن تتحقق فيها جودة الكلام إذا ارتجله صاحبه، فكذلك الأمر في حالتنا هذه من أن ثمة من القائلين مَن يُستبعد أن يجيدوا إذا ارتجلوا الكلام ارتجالاً، والحرص على بلاغة الكلام دفع الجاحظ إلى النهي عن الارتجال في الحالين.

وهنا أيضاً- كما هي الحال في تلك المقامات على ما تقدم ذكره- فإن هذا النهي لا يعني التقليل من شأن الارتجال نفسه، فلو أن أديباً مبتدئاً قال على البديهة وأجاد في كلامه، فإن من المؤكد أن ذلك سيحمل الجاحظ على الإعجاب به، ويدعوه إلى الثناء عليه، بل يمكن القول إن الإعجاب به سيكون أشد لأنه جاء بما هو غير متوقّع منه، وهو أمر يصدق أيضاً على مَن يجيد على البديهة في تلك المقامات التي تستدعي الروية وطول الفكرة، فالقائل كلامه ارتجالاً، إذا

أحسن وأجاد وكان أديباً ناشئاً أو كان قد قال في مقامات كهذه، فإنما فاجأ المستمع بما كان يظن خلافه، أو "أحبط توقّعات المستمع"، كما يقولون، أو إذا استعرنا ما جاء عند أبي حيان عن بلاغة البديهة: "هناك يقع التعجّب للسامع، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يظنّ أنه يظفر به، كمن يعثر بمأموله على غفلة من تأميله"[69]. وفي "البيان والتبيين" ما يشبه هذا الذي نحن فيه، وإن كان السياق مختلفاً، فلو أن رجلين – فيما نقله الجاحظ عن سهل بن هرون- تحدّثا، وكان أحدهما جميلاً جليلاً شريفاً، والآخر قليلاً قميئاً دميماً خامل الذكر، وكان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، لقضى السامعون "للقليل الدّميم على النبيل الجسيم... لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد. فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدّروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبُر في عيونهم"[70]. وكذلك الأمر في مسألتنا ههنا، فإن القائل على البديهة إذا أجاد وأصاب والناس يعتقدون فيه غير ذلك (إما لحداثة تجربته أو صعوبة الارتجال في المقام الذي يتحدث فيه) هو أيضاً كان القوم "مِن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد"، فلما "ظهر منه خلاف ما قدّروه" استحال إشفاقهم من عدم نجاحه إعجاباً مضاعفاً بنجاحه.

- ح -

تتبعنا فيما تقدم من الحديث ما ورد في "البيان والتبيين" من أفكار وآراء وأقوال مما له صلة بموضوع الارتجال، وتناولناها بالقدر من التفصيل الذي يحتمله المقام، ونعود الآن في خاتمة هذا البحث إلى السؤال الذي ألقيناه في مفتتح بحثنا هذا، أو ما اصطُلح على تسميته "مشكلة البحث": ما مدى التوافق بين تلك الأفكار والآراء؟ والجواب عن ذلك هو في الوقت نفسه جواب عن مسألة أخرى: هل تؤلّف هذه الأفكار والآراء مجتمعة ما يستقيم لنا أن نزعم أنه مذهب للجاحظ في موضوع الارتجال على حظ من الانسجام والاتساق بين جوانبه، أم أنها لا تعدو أن تكون أفكاراً متناثرة وآراء آنيّة يتبرّأ بعضها من بعض؟ هاتان المسألتان على قدر كبير من الإلحاح لأن "البيان والتبيين" يضع بين يدي قارئه خليطاً متنافراً من الآراء والأقوال تنافراً يصل إلى درجة التناقض الصريح. هذا التنافر والتعارض لم يقتصر على ما جاء في مواضع متباعدة من الكتاب مما يمكن أن يُعزى إلى أن الجاحظ قد نسي هنا ما سبق أن قاله هناك، أو أن يُعزى إلى تطوّر أو تغيّر في آرائه ومواقفه فذهب مذهباً ثم بان له خلافه فيما بعد. لم يقتصر الأمر على تلك المواضع المتباعدة، بل رأينا التنافر قد ظهر غير مرة في المكان الواحد حيث اجتمع الرأي ونقيضه. وهذا- فضلاً عن أن تلك الآراء، على تنافرها، تتكرر في مواطن مختلفة مما يدل على تمسّك الجاحظ بها وثباته عليها- يدعو إلى التساؤل ويوجب إعادة النظر.

لقد اقتضت طبيعة البحث أن نقرأ ما في "البيان والتبيين" مما له صلة بمسألة الارتجال قراءتين: في الأولى عرضنا ما في ذلك الكتاب من مادة في هذا الباب كما تبدو عليه الأمور في ظاهرها، وتبيّن أن فهم كلام الجاحظ على هذا النحو ينتهي بنا إلى أن مقالته في الارتجال تفصح عن اضطراب مذهبه وتناقض جوانب هذا المذهب، وتنبئ عن تردد صاحبه بل حيرته. ثم عدنا في القراءة الثانية إلى تناول تلك الجوانب وتفسير رأيه في كل منها أو توجيهه بالنظر إلى المنطلقات المختلفة التي نرجّح أنه قد صدر عنها، ومن المؤمّل أننا أفلحنا بذلك في إعادة الانسجام إلى مقالة الجاحظ في هذا الشأن، وأن نبيّن أنه ليس ثمة من تعارض حقيقي بين جوانبها وإن بدا الأمر خلاف ذلك.

لعلنا الآن قادرون على أن نوجز مذهب الجاحظ في هذا الموضوع، وأن نعيد صياغته على النحو الآتي:

- الارتجال قدرة متميزة لدى المتكلم تدعو إلى الإعجاب حقاً، وهو أعلى صورة تتصور بها بلاغة هذا المتكلم.
- الارتجال إنما يكون كذلك إذا كان الكلام المرتجل في نفسه بليغاً، لا لمجرد أنه قد قيل على البديهة، فإنه إذا اختلت شروط بلاغته صار مذمّة لقائله، وعيب على هذا القائل تسرعه وعدم تثبته، لأن بلاغة الكلام هي العمدة، وهي الأصل الذي يمكن أن يُتسامح في أي أمر آخر ما عداه ومن أجله.
- وتأسيساً على ذلك، فإن مواقف بعينها تستدعي بطبيعتها طول الفكرة والروية، ولا يُنصح القائل فيها بارتجال كلامه لأن من الصعب أو من غير المتوقّع الإجادة في هذه المواقف، أي استيفاء شروط البلاغة، ارتجالاً.
- الارتجال إنما صار مدعاة إلى العجب لأنه ظاهرة استثنائية خارجة عن المألوف حتى بين كبار الأدباء، ويقتضي ذلك أنه ليس من الحكمة أيضاً أن يشجّع الأديب المبتدىء على سلوك هذه الطريقة.

تلك هي الجوانب التي تؤلف في مجموعها مذهب الجاحظ في الارتجال في "البيان والتبيين"، وهي متمكنة في فكر الجاحظ كما رأينا، ولكنه لم يعتنِ بالتنسيق فيما بينها، أو عرضها على نحو ينفي شبهة التناقض عنها، ولعله في ذلك يصدق عليه ما وُصف به المتنبي في قول من وازن بينه وبين أبي تمام: "كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده، لا يُبالي ما لقي ولا حيث وقع"[(71)]. والجاحظ أيضاً يهجم على الرأي يطلقه إطلاقاً،غير مبالٍ لفرط اعتداده – فيما نظن– بفكره وبيانه ومنزلته العلمية بأن يضع من القيود والاحترازات

والتوضيحات ما يدفع عن مقالته عيب عائب أو تعقّب متعقّب؛ إنه كالملك الجبار يقول القول تاركاً للآخرين أن يجتهدوا في تفسير مراده.

قد يُعزى احتياج مقالة الجاحظ إلى التنسيق بين جوانبها إلى أن "البيان والتبيين" جاء في وقت مبكر من تاريخ البلاغة ولما تدخل في طور التحليل والتفصيل، ولكن التفصيل شيء، والتنسيق بين الفكرة وأختها فراراً من شبهة التناقض شيء آخر. ولعله لا يكون كثير من المجازفة في قولنا: قد لا تظفر ببلاغي آخر يبلغ مبلغ الجاحظ في جرأته على اللغة أولاً وعلى الفكرة ثانياً، فالجاحظ ينطلق في عبارته ويسترسل في فكرته في غير تحفّظ أو تحرّج. غيره من البلاغيين يكتب وفي ذهنه نقدة يحصون هفواته، أو كأن الناس، كما قال الجاحظ فيما نقلناه عنه سابقاً، "كلهم له أعداء... وكلهم متفرّغ له"، فتجده حريصاً على أن يسدّ الثغرات ويتحوّط لما قد يُثار من شبهات واعتراضات، أما الجاحظ فكأنك به وهو يخاطب قارئه أستاذ عالم يتحدث إلى تلاميذ يسرعون إلى التقاط ما يلقيه عليهم من غزير علمه وثمرة فكره، لا يهجس لهم- ولا له أيضاً- أن ينتقدوا عالمهم. الجاحظ في اندفاعاته الفكرية غير المتحفّظة يترك لدى قارئه انطباعاً بأنه لا يخشى من النقد، وقد تقول إنه وقد ألف "البيان والتبيين" في أخريات حياته[72]، بعد أن علا صيته واتسعت شهرته، صار يرى في نفسه أنه فوق النقد، وأنه في غير حاجة إلى مراجعة أفكاره وتحريرها وتنقيحها والتنسيق فيما بينها. لقد رأينا الجاحظ يدعو مؤلف الكتاب، إلى ضرورة التنقيح والتحرير وإعادة النظر وكأن القرّاء "كلهم له أعداء"، ولكن الظاهر أنه وهو يكتب عن الارتجال في "البيان والتبيين" قد أعفى نفسه مما دعا غيره إلى التقيد به، وكأنها نصيحة لا يرى أنه هو نفسه في حاجة إليها، إذ يبدو أن كلامه هنا لم تعمل فيه يد التحرير والتنسيق، وكأن الارتجال يظل أعلى مراتب البلاغة- على نحو ما يتجسّد ذلك فيه هو نفسه في نظر نفسه- حتى في تأليف الكتب.

Al Jahiz's Theory on *Irtijal* (Improvisation) in his Work *al-Bayan wa al-Tabyin*

Abdul Karim Ahmad al-Hiyari, *Department of Arabic Language and Literature, The University of Jordan, Amman, Jordan.*

Abstract

Irtijal (speaking impromptu, improvisation) in al- Jahiz's *al-Bayan wa al- Tabyin* has not been given due attention by his critics nor in studies on Arabic literary theory in general. Al-Jahiz's material on the subject seems incongruent or even contradictory. The present article traces this material, reconstructs it to elucidate the main features of al-Jahiz's theory and investigates it to determine the degree of its coherence and consistency. By re-examining al-Jahiz's remarks and the traditions he quotes within their own contexts and considering the different angles wherefrom he tackles the subject, the present article concludes that al-Jahiz's precepts here, despite their apparent contradictions, remain fairly coherent and consistent: so long as the quality of the *speech* is not compromised, it is *Irtijal* that attests to the *speaker's* eloquence. But in certain cases, this quality is unlikely to be maintained unless the speech is prepared and revised. Here *Irtijal* should be avoided.

قدم البحث للنشر في 2013/10/6 وقبل في 2014/4/1

الهوامش

(1) انظر في الارتجال: ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، 1981، ج1ص189-ص196؛ ابن الأثير الجزري، ضياء الدين: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، تحقيق نوري القيسي وزميليه، الموصل، منشورات جامعة الموصل، 1982، ص47 – ص49؛ حازم القرطاجني، أبو الحسن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص213؛ ابن ظافر الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي: بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1970، ص7-ص9؛ ابن الأثير الحلبي، نجم الدين أحمد: جوهر الكنز، تحقيق محمد زغلول سلام، الإسكندرية، منشأة المعارف، د.ت.، ص439 – ص440. ومن المحدثين: بدوي، أحمد أحمد: أسس النقد الأدبي عند العرب، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1964، ص627-ص631؛ درويش، محمد طاهر: في النقد الأدبي عند العرب، القاهرة، دار المعارف، 1979، ص215-ص218 (وانظر أيضاً ص63-ص66)؛ مطلوب، أحمد: معجم النقد العربي القديم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ج1ص129- ص132(وانظر أيضاً ج1

ص268- ص270)؛ عزام، محمد: مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي، دمشق، وزارة الثقافة، 1995، ص92-ص94؛

Bonebakker, S.A:.*"Irtidjal" , Encyclopaedia of Islam,* New Edition, Leiden, E.J. Brill, 1978, *q.v.*

(2) ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1ص196؛ ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ص7

(3) انظر: ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1ص189؛ ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ص8؛ ابن الأثير الجزري: المصدر السابق، ص47؛ ابن الأثير الحلبي:المصدر السابق، ص439؛ درويش، محمد طاهر: المصدر السابق، ص215

(4) ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1ص190

(5) المصدر نفسه، ج1ص189

(6) المصدر نفسه، ج1ص192

(7) انظر: المصدر نفسه، ج1ص189

(8) انظر مثلاً: المصدر نفسه، ج1ص190، س5 من الأسفل، ص191، س5،س7،س8 (وانظر ما يقوله في ذلك شفيع السيد: فن القول بين البلاغة العربية وأرسطو، القاهرة، دار غريب، 2006، ص178). وكذلك الحال مع ابن ظافر الأزدي إذ جعل عنوان كتابه "بدائع البدائه" (مصدر سابق)، ومع ذلك تجده يورد قولاً على أنه ارتجال ثم يستعمل في التعليق عليه مصطلح البديهة أو العكس (انظر: ص337- ص338، ص400).

(9) انظر مثلاً: فياض، نقولا: الخطابة، القاهرة، إدارة الهلال، 1930، ص135

(10) يقول المأمون: "بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول"، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا- بيروت، المكتبة العصرية، 1986، ص40؛ وانظر: ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1ص191.

(11) الكلاعي، أبو القاسم محمد: إحكام صناعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت، عالم الكتب، 1985، ص248؛ قارن: Dixon, Peter: *Rhetoric*, London , Methuen, 1980, p.31

(12) ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن ابراهيم: البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد، مطبعة العاني، 1967، ص213.

(13) انظر: ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1ص193؛ فياض، نقولا: المرجع السابق، ص102-104.

(14) انظر: ابن وهب الكاتب: المصدر السابق، ص215.

(15) انظر: فياض، نقولا: المرجع السابق، ص102 (قارن: أبو زهرة، محمد: الخطابة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1980، ص138 الحاشية). وانظر أيضاً: تقي فلسفي، محمد: البيان وفن الخطابة، ترجمة عباس حسين الأسدي، بيروت، مؤسسة البعث، 1995، ص43

(16) انظر: ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة، دار المعارف، 1978، ص20-ص21.

(17) انظر مثلاً: ج1ص384، ج3ص28.

(18) انظر: ج1ص331، ص384، ج2ص9، ص111، وانظر الكلام القضيب والمقتضب: ج1ص204، ص205، ج2ص14. انظر أيضاً: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1969، ج1ص35، ص37 (يضيف هنا مصطلحاً آخر: الابتداء). انظر الزمخشري، جار الله: أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، بيروت، دار المعرفة، 1982، مادة ق ض ب: اقتضب الكلام ارتجله.

(19) قارن: بنّاني، محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص222، ص255، حيث يفسر الاقتضاب عند الجاحظ بأنه الإيجاز، ولكن الاقتضاب في لغة الجاحظ كما تبين النصوص المقتبسة في هذا البحث لا يرد إلا بمعنى الارتجال.

(20) انظر مثلاً: ج1ص204، ص331، ص339، ج2ص9، ص14، ج3ص28

(21) انظر: ج1ص204، ص205، ج2ص14

(22) ج1ص384

(23) ج3ص28- ص29. انظر (مثلاً) فياض، نقولا: المرجع السابق، ص101(حيث ينقل كلام الجاحظ)، وانظر ص121 (حيث يقرر أن الخطابة عند العرب بديهة وارتجال)؛ الحوفي، أحمد محمد: فن الخطابة، القاهرة، دار نهضة مصر، 1996، ص43- ص44 (ينقل كلام الجاحظ ويرى أن أمية العرب كانت سبباً في سرعة البديهة لديهم)؛ عبد العال، محمد يونس: في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، القاهرة، الشركة المصرية العامة للنشر- لونجمان، 1996، ص72- ص73 (ينقل عبارات الجاحظ ويقرر أن العرب كانوا مفطورين على البدائه).

(24) هذا ما يقوله شوقي ضيف: المرجع السابق، ص20. انظر ما يقوله في الرد عليه محمد عبد العزيز الكفراوي: الشعر العربي بين الجمود والتطور، بيروت، دار القلم، د.ت.، ص14- ص16. وانظر أيضاً: أبو زهرة، محمد: المرجع السابق، ص227- ص229؛ النص، إحسان: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، القاهرة، دار المعارف، 1969، ص16.

(25) انظر مثلاً: كتاب الحيوان (مصدر سابق)، ج1ص74- ص75، ج2ص245؛ رسالة مناقب الترك، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هرون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1964، ج1ص69-ص70؛ كتاب حجج النبوة، الفصول المختارة من كتب الجاحظ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان، تحقيق عبد

السلام هرون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1979، ج3ص279؛ رسالة تفضيل النطق على الصمت، الفصول المختارة من كتب الجاحظ، ج4ص237

(26) ج1ص15. ينكر إحسان النص: المرجع السابق، ص249 أن تكون خطب واصل مرتجلة؛ انظر أيضاً: الحوفي، أحمد: أدب السياسة في العصر الأموي، بيروت، دار القلم، د.ت.، ص339.

(27) ج1ص24

(28) ج1ص22

(29) ج1ص340

(30) ج1ص339

(31) ج4ص30، ص33 (قارن الكلاعي، أبو القاسم: المصدر السابق، ص180)، وانظر أيضاً ما قاله عن داود بن علي، ج1ص331

(32) ج1ص197

(33) ج2ص111، وانظر قوله: "ما أنا والرأي الفطير والكلام القضيب"، ج1ص205

(34) ج1ص205

(35) ج2ص188، وانظر قول عبد الله بن وهب الراسبي: "إياي والرأي الفطير"، ج2ص14

(36) ج1ص204، ج1ص205: قيل لابن التوأم الرقاشي: "تكلم"، فقال: "ما أشتهي الخبز إلا بائتاً".

(37) انظر مثلاً: ج1ص200- ص203

(38) انظر مثلاً تعليقه على تعريف العتابي للبلاغة، ج1ص113، ص161

(39) ج2ص9

(40) ج2ص13

(41) المكان نفسه

(42) انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق دي خويه، ليدن، مطبعة بريل، 1904، ص19، ص160؛ المرزباني، محمد بن عمران، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995، ص80- ص81

(43) انظر: ج1ص204- ص206

(44) ج1ص206

(45) قارن ذلك بما ورد عند ابن قتيبة: المصدر السابق، ص61: "كان الأصمعي يقول زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين".

(46) ج4ص28

(47) ج2ص13- ص14

(48) انظر مثلاً: نقولا، فياض: المرجع السابق، ص101- ص106؛ أبو زهرة، محمد: المرجع السابق، ص142- ص144؛ شلبي، عبد الجليل: المرجع السابق، ص75- ص79

(49) أبو زهرة، محمد: المرجع السابق، ص142

(50) المرجع نفسه، ص155

(51) قارن ذلك بما ورد عند الجاحظ نفسه في مدح الشيء وذمه، ج1ص53، ص349

(52) انظر: العسكري، أبو هلال: المصدر السابق، ص6- ص7، ص37؛ القزويني، الخطيب جلال الدين: تلخيص المفتاح، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.، ص24، ص32، ص36

(53) ج1ص339، وانظر ج1ص340 (البيت الثالث)

(54) البرهان في وجوه البيان (مصدر سابق)، ص213

(55) ج2ص268، وانظر أيضاً: كتاب الحيوان (مصدر سابق)، ج7ص155- ص157؛ قارن: ابن رشيق القيرواني: المصدر السابق، ج1ص193- ص195 حيث يذكر شعراء آخرين؛ ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ص339

(56) ابن قتيبة: المصدر السابق، ص144؛ ابن رشيق: المصدر السابق، ج1ص194

(57) ج1ص24

(58) قدامة بن جعفر، أبو الفرج: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر، مكتبة الخانجي وبغداد، مكتبة المثنى، 1963، ص92

(59) ج1ص5

(60) كتاب الحيوان (مصدر سابق)، ج1ص88؛ وانظر أيضاً كتاب الوكلاء في الفصول المختارة من كتب الجاحظ (مصدر سابق)، ج4ص98

(61) ج1ص96، وانظر الراغب الأصفهاني، أبو القاسم: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق عمر الطباع، بيروت، دار الأرقم، 1999،ج1ص112

(62) ج1ص206- ص207

(63) انظر: ابن وهب الكاتب: المصدر السابق، ص163؛ ابن رشيق: المصدر السابق، ج1ص193، ص195؛ ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ص8؛ حازم القرطاجني، أبو الحسن: المصدر السابق، ص213؛ وانظر ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1990، ج1ص325

(64) العمدة (مصدر سابق)،ج1ص199

(65) المصدر نفسه، ج1ص195

(66) انظر مثلاً: ج1ص204؛ انظر أيضاً: كتاب الحيوان (مصدر سابق)، ج1ص89؛ كتاب الفتيا، رسائل الجاحظ (مصدر سابق)، ج1ص317

(67) ج1ص203

(68) ج1ص204

(69) أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.، ج2ص142

(70) ج1ص89

(71) ابن رشيق: مصدر سابق، ج1ص133

(72) انظر البيان والتبيين، مقدمة المحقق، ج1ص15- ص16

المصادر والمراجع

ابن الأثير الجزري، ضياء الدين: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، تحقيق نوري القيسي وزميليه، الموصل، منشورات جامعة الموصل، 1982.

ابن الأثير الحلبي، نجم الدين أحمد: جوهر الكنز، تحقيق محمد زغلول سلام، الإسكندرية، منشأة المعارف، د.ت.

ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1990.

ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل، 1981.

ابن ظافر الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي: بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1970.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق دي خويه، ليدن، 1904.

ابن وهب الكاتب، إسحق بن إبراهيم: البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد، مطبعة العاني، 1967.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.

أبو زهرة، محمد: الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، القاهرة، دار الفكر العربي، 1980.

بدوي، أحمد أحمد: أسس النقد الأدبي عند العرب، مصر، مكتبة نهضة مصر، 1964.

بنّاني، محمد الصغير: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.

تقي فلسفي، محمد: البيان وفن الخطابة، ترجمة عباس حسين الأسدي، بيروت، مؤسسة البعث، 1995.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هرون، بيروت، دار الفكر، د.ت.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الفصول المختارة من كتب الجاحظ، اختيار الإمام عبيد الله بن حسان، تحقيق عبد السلام هرون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1979.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هرون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1964.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1969.

حازم القرطاجني، أبو الحسن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981.

الحوفي، أحمد: أدب السياسة في العصر الأموي، بيروت، دار القلم، د.ت.

الحوفي، أحمد: فن الخطابة، القاهرة، دار نهضة مصر، 1996.

درويش، محمد طاهر: في النقد الأدبي عند العرب، القاهرة، دار المعارف، 1979.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق عمر الطباع، بيروت، دار الأرقم، 1999.

الزمخشري، جار الله محمد بن عمر: أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، بيروت، دار المعرفة، 1982.

السيد، شفيع: فن القول بين البلاغة العربية وأرسطو، القاهرة، دار غريب، 2006.

شلبي، عبد الجليل: الخطابة وإعداد الخطيب، القاهرة، مصر العربية للنشر والتوزيع، 1984

ضيف، شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة، دار المعارف، 1978.

عبد العال، محمد يونس: في النثر العربي، قضايا وفنون ونصوص، القاهرة، الشركة المصرية العامة- لونجمان، 1996.

عزام، محمد: مصطلحات نقدية من التراث الأدبي العربي، دمشق، وزارة الثقافة، 1995.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا- بيروت، المكتبة العصرية، 1986.

فياض، نقولا: الخطابة، القاهرة، إدارة الهلال، 1930.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مصر، مكتبة الخانجي، وبغداد، مكتبة المثنى، 1963.

القزويني، الخطيب جلال الدين: تلخيص المفتاح، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

الكفراوي، محمد عبد العزيز: الشعر العربي بين الجمود والتطور، بيروت، دار القلم، د.ت.

الكلاعي، أبو القاسم محمد: إحكام صناعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت، عالم الكتب، 1985.

المرزباني، محمد بن عمران: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995.

مطلوب، أحمد: معجم النقد العربي القديم، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

النص، إحسان: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، القاهرة، دار المعارف، 1969.

Bonebakker, S.A:.*"Irtidjal" Encyclopaedia of Islam,* New Edition, Leiden, E.J. Brill, 1978.

Dixon, Peter: *Rhetoric*, London, Methuen, 1980.